

نحو صياغة جديدة لاتجاهات دراسة الأديان الاتجاه الجدلي نموذجاً

عمر صمصم

أستاذ مساعد - ١ -

كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية - جامعة الجلفة

لو تلقى نظرة مسحية على ما كتب من ردود على الديانات في الفكر الإسلامي منذ القرن الهجري الأول إلى زماننا هذا، نجد تراثاً يمكن الاستفادة منه من حيث المناهج والاتجاهات التي كوَّنت لنا مدارس في علم دراسة الأديان، لكن ألا يحتاج منا اليوم هذا التراث باتجاهاته ومناهجه إلى إعادة صياغة جديدة؟، بترتيبه، وتصنيفه، والوقوف على إشكالاته، للخروج بنظرية متكاملة عن أولويات استخدام اتجاهات دراسة الأديان في فكرنا الإسلامي، ومحاولة توحيدها على مناهج مقاربة فيما بينها، لتصبح غاية دراستنا للأديان مهمة نبيلة في خدمتنا وهداية غيرنا، بأسلوب يقرب الإنسان لأخيه الإنسان، ويحاور غير المسلمين بالحجة والبرهان، يجد فيه المسلمون وصفاً لما يدور حولهم من ثقافات على حقيقتها، ويلمس فيه غير المسلمين احتراماً لديانتهم، ونقدًا تسعه قلوبهم.

ومن هذه النظرة الصعب تحقيقها نوعاً ما، لأنها تحتاج منا إلى تصفية النفوس قبل تصفية العقول، ندعو إلى التحديد، وليس مرادنا التحديد الابتعاد عن المنهج القرآني في عرضه للديانات، بل التحديد هو الرجوع إلى الأصل القرآني مع الاستفادة من اجتهادات علمائنا وخيرات غيرنا في مجال دراسة الأديان، مع تمثيل الموضوعية في معرفة المخالف التي هي أصل قرآني ونبوي لا يمكن لأحد إنكاره.

لذا متناقش اتجاهات دراسة الأديان في الفكر الإسلامي، ثم نتخذ من الاتجاه الجدلي نموذجاً للتحديد، مع ذكر الإشكالات، التي وقف عندها الدارسون، ثم التصور المقترح لتطوير الاتجاهات في سبيل الاستفادة منها أكثر.

01- الاتجاهات الرئيسة لدراسة الأديان في الفكر الإسلامي

تمهيد:

إن المتأمل في نظرات المسلمين للأديان عبر تاريخهم وتراثهم، يجد تنوعاً وتبايناً في الرؤى والمناهج، فلكل نظرة محدداتها وخلفياتها الشخصية والتاريخية والجغرافية والمذهبية.

وتختلف الدراسات الإسلامية في دراسة الأديان من حيث الاتجاهات، ويمكن تصنيف هذه الدراسات إلى أربعة اتجاهات عامة تتقاطع وتتعاقد فيما بينها أحياناً، وتتباين وتتناقض أحياناً أخرى.

وهي نفسها التي نجدها خاصة في دراسة الديانة النصرانية والديانة اليهودية، وهي على النحو الآتي:

01-01- الاتجاه النقدي الجدلي:

ينقسم إلى فرعين متحدين في الغاية، ومختلفين في المنهج ومركز الاهتمام؛ ويمكن اعتبارهما وجهين لاتجاه واحد، نظراً لتداخلهما في الأعمال النقدية:

أ- الاتجاه الكلامي الذي بدأه المعتزلة، واستمر فيه الأشاعرة والماتريدية، وظل تقليداً راسخاً في عصور ازدهار علم الكلام، كجزء لا يتجزأ من مباحثه.

يُعنى هذا الاتجاه بالأديان في أبعادها العقدية والفلسفية والفكرية بالدرجة الأولى، وفي جوانبها التي تتعارض والعقيدة الإسلامية، مثلما يفهمها الناقد ضمن إطار مدرسته الكلامية.

ب- الاتجاه النصي؛ الذي يُعنى بتطبيق معايير التصور الإسلامي للنص الديني على نصوص الأديان الأخرى، الكتابية منها بصفة خاصة.

وهي المعايير التي طورها علماء القرآن وبشكل خاص علماء الحديث، والغاية من هذا الجدل هو البحث على المثالب والتناقضات الموجودة، أو المفترضة في النصوص الأخرى، لإثبات عدم حجيتها، وعدم الاعتداد بها دينياً.

01-02- الاتجاه الفقهي:

يُعنى بالتقنين للواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، من خلال تفصيل منظومة أهل الذمة، أو تمديداتها لتشمل مللاً أخرى غير المنصوص عليها.

يتميز هذا الاتجاه بغلبة الصبغة القانونية العملية مع اختلاف الاجتهادات توسيعاً وتضييقاً، حسب المدارس الفقهية والسياقات التاريخية والجغرافية¹.

01-03- الاتجاه الوصفي:

وإن كان الوصف يحتوي أحياناً مواقف نقدية مبطنة، من خلال التركيز على بعض النواحي أو إغفال

¹ - انظر مثلاً من المؤلفات الحديثة في هذا الاتجاه: الجزية في الإسلام، لمنقذ بن محمد السقار، ومدى خضوع غير المسلمين للقضاء الإسلامي في الدولة الإسلامية، لعثمان بن جمعة ضميرية.

بعضها، أو التعبير عليها بمصطلح غير مناسب، أو تصنيفها... إلا أن هذا الاتجاه يتميز عموماً، بشيء من البرود والحياد مقارنة بالاتجاه الجدلي.

01-04- الاتجاه الصوفي¹:

الاتجاه الذي يبحث مواطن الالتقاء والوحدة من وراء اختلاف الظواهر والأشكال، فهو أكثر الاتجاهات تنهما للآخر الديني، وبعدها من التربة الجدلية التسلطية، وإن كانت بعض أفكاره غامضة ومثارة للجدل بين المسلمين أنفسهم نظراً لصياغتها بلغة رمزية، يصعب استيعابها على غير المتمرس².

وتعدّ هذه الاتجاهات الأربع الأهم في دراسة الفكر الإسلامي للديانات المخالفة، غير أننا سنتناول منها الاتجاه الكلامي، باعتباره أكثر وضوحاً وشمولية في عملية النقد والرد على المخالف، ولأنه يلّم بجزء كبير من التراث الفكري الإسلامي في دراسة الأديان.

02- الاتجاه النقدي الجدلي

عندما ازداد انتشار الإسلام، وكثرت الفتوحات الإسلامية للبلدان الأخرى، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية لتشمل أمماً متعددة ذات ديانات مختلفة، حدث احتكاك ثقافي وعقائدي بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى.

وكان من أهم مظاهر الاحتكاك الفكري والعقائدي ظهور المناقشات والمجادلات الدينية، لأن كل فريق كان يريد إثبات صحة عقائده الدينية وخطأ عقائد الفريق الآخر.

الأمر الذي استلزم من مفكري الإسلام، وخاصة الذين خاضوا غمار المجاذلات، أن يتعرفوا بعمق ودقة وشمول على حقيقة الأديان التي يتناقشون مع أصحابها.

وكان لتكلمي الإسلام، وخاصة من المعتزلة ثم الأشاعرة بعد ذلك، اليد الطولى في هذا الصدد³. في نفس الوقت كان لظهور مدرسة الحديث دور في مناقشة الخصوم من أصحاب الأديان الأخرى، يقوم على أسس جدلية بمنهج نقد المتن والسند.

ومن أهم الأديان (نموذجاً) التي وجه إليها النقد في هذا الاتجاه هي الديانة المسيحية.

وركز النقد الجدلي على مسائل معينة، يمكن عرضها فيما يأتي:

- تحريف الأناجيل.

¹ - يمكن اعتبار الاتجاه الصوفي اتجاهًا يبحث في وحدة الأديان، ولا يسعى لنقدها، وهو ما سلكه بعض الصوفية ممن يقولون بوحدة الوجود، والحلول... انظر: (الحقيقة الدينية من منظور الفلسفة الصوفية - الحلاج وابن عربي نموذجاً - محمد الكحلوي، بيروت: دار الطليعة، 2005).

² - انظر: عدنان المقراني، نقد الأديان عند ابن جزم، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1429 هـ، 2008، ص 14-15.

³ - إبراهيم تركي، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، الإسكندرية: دار الوفاء، الطبعة الأولى، 2002، ص 36.

- دعوى ألوهية المسيح عليه السلام.

- دعوى بنوته لله تعالى.

- عقيدة الصلب والفداء.

- دعوى الاتحاد الأقنومي.

- فرق المسيحية.

- إثبات نبوة عيسى عليه السلام.

- إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

- المجامع المقدسة.

- مخاريق القسس والرهبان.

- تلك هي القضايا التي ثار حولها الجدل بين المسلمين والمسيحيين.

ونود التنبيه إلى أن المجادلين المسلمين القدامى، كالقاسم بن إبراهيم الحسيني، والجاحظ، وإمام الحرمين الجويني، لم يتناولوها جميعاً في الكتب التي ألفوها في الرد على النصارى، بل اختار كل منهم تلك القضايا ما يرى أنه الأهم، والذي تنبني عليه بقية المسائل، ثم قام بتفنيده والرد عليه.

ولم تصبح بأسرها موضوعاً لكتابات المجادلين المسلمين، إلا ابتداءً من القرن السادس الهجري، بعد أن تعمقت دراسة المسلمين لكتب أهل الكتاب، واستفاد المتأخرون منهم من جهود من تقدمهم¹.

ومما تقدم يتفرع الاتجاه النقدي الجدلي إلى فرعين هما الاتجاه النصي، والاتجاه الكلامي العقلي.

01-02 - الاتجاه النصي²:

¹ - محمد محمد حسنين، مناهج المجادلين المسلمين في نقد النصرانية، قطر: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد الخامس، 1987، ص 643.
² - يعد القرآن الكريم أول من طعن في سند الكتاب الذي يؤمن أهل الكتاب بقدسيته، وإن كانت الإشارات ضمنية إلا أنها نبهت المسلمين الأولاد لموضوع السند، وفقدان أهله شرط التواتر والعدل، كما أنها نبهت إلى ما أصاب المتن من زيادة ونقصان واضطراب، وبذلك كان للقرآن الكريم فضل السبق في إرساء أسس هذا العلم قبل الحركة الحديثة التي ظهرت في القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد تأثر علماء مقارنة الأديان بهذا الاتجاه الوارد في القرآن الكريم، وأوضح الأدلة على ذلك أن كل من كتب في دراسة الأديان لم يخل كتابه من الحديث عن هذين الاتجاهين وإن تفاوت كل كاتب في القبض والبسط بحسب ظروف الزمان والمكان والثقافة، وأوضح الأدلة على ذلك ما يأتي:

01- الإمام ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والنحل" في النصف الأخير من الباب الأول والنصف الأول من الباب الثاني، قد ناقش قضية السند في بعض الجوانب المتعلقة بهذا الأمر، وأقام الدليل على انقطاع الإسناد 02- الإمام القرطبي في كتابه "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام" في الفصل الثالث من الباب الثالث ذكر مبحثين، الأول عنوانه: فصل في بيان بعض مما طرأ في التوراة من الخلل، وأما لم تنقل نقلاً متواتراً فتسلم لأجله من الخلل والزلل، الثاني عنوانه: فصل في بيان أن الإنجيل ليس بمتواتر، وبيان بعض ما وقع فيه من الخلل 03- الإمام القرطبي في كتابه "الأجوبة النافذة عن الأسئلة الفاجرة"، أشار إلى رواية الأناجيل الأربعة (متى - مرقس - لوقا - يوحنا)، وأشار إلى إنجيل آخر أغفله النصارى وهو المسمى بإنجيل الصبوة، كما تحدث عن شرط التواتر، وأقام الدليل على فقدانه عند أهل الكتاب 04- أبي عبيدة الخزرجي في كتابه "الفاصل بين الحق والباطل أو مقامع هجمات الصليبيات" في الفصل الأول من المقدمة، تناول الإسناد أيضاً عرضياً 05- الإمام ابن تيمية في كتابه "الجواب الصحيح لمراد من يسئ إلى دين الإسلام" في الفصل الأول من المقدمة، تناول الإسناد أيضاً عرضياً 06- الإمام المسعودي في كتابه "تخجيل من حرف الإنجيل" في مطلع الكتاب حيث تكلم عن السند وذكر أن رجال الإسناد 07- العلامة عبد الرحمن الباجه زاده في كتابه "الفارق بين المخلوق والخالق" في الفصل الأول من المقدمة، تناول الإسناد أيضاً عرضياً.

يقوم الاتجاه النصي في نقد الأناجيل على نفس الأسس التي ارتضاها علماء الحديث، لتوثيق أو تضييف الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث مراعاة قواعد الجرح والتعديل، ومن حيث عدد الرواة في كل طبقة أو حلقة من حلقات الإسناد، ومن حيث قواعد الجمع بين الأحاديث التي تبدو متخالفة أو متعارضة في ألفاظها أو معناها.

واستخدم هذا المنهج كثير من المجادلين المسلمين لوضع نص الأناجيل من أوله إلى آخره موضع الشك، عن طريق رفع الثقة برواته، إما لأن عددهم في البداية كان قليلا لا يبلغ حد التواتر اللازم لبناء الثقة بمضمونه، وإما لأن النقلة لم يكونوا عددا لا يؤمن تواطؤهم على الكذب، وإما للأمريين جميعا. كذلك اجتهد المجادلون المسلمون في إبراز ما يرونه تناقضا ظاهرا بين ألفاظ الأناجيل أو بين معاني بعض فقراتها، وهو ما يخرجها عن أن تكون كتباً موحاة من الله، إذ لو كانت موحاة منه تعالى لما وجد بينها هذا الاختلاف الكبير.

كما اعتمد آخرون في الاتجاه النصي على المنهج التفسيري؛ إذ يقوم هذا المنهج على افتراض صحة الأناجيل، ثم البحث فيها عن العبارات التي توهم ألوهية المسيح، وتفسيرها تفسيراً يخرجها عن معناها الحرفي، ثم مقابلتها بعبارات وألفاظ أخرى من الأناجيل ذاتها تدل على إنسانيته ورسالته لتنهار دعواهم في ألوهية المسيح، وبالمقابلة تنهار بقية الدعاوى المسيحية في الاتحاد الأقنومي، وفي دعوى القتل والصلب وعقيدة الفداء، كما ينهار الأساس الذي تقوم عليه الفرق المسيحية.

ويعتبر أبو حامد الغزالي، فارس هذا الميدان، بما قدمه في كتابه: الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل. ومن نماذج الاتجاه النصي ابن حزم.

02-02- الاتجاه الكلامي العقلي:

يقوم هذا الاتجاه على أساس لا معقولة عقائد النصارى في التجسد والتثليث والأقانيم، والخطيئة والصلب والفداء، وقرارات مجامع المسيحيين المقدسة، وآراء فرق النصارى الشرقية الثلاث في طبيعة المسيح، وحقيقة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت.

ورواد هذا الاتجاه هم قدامى المعتزلة¹، لأنهم يميلون بطبيعتهم، وبحكم اتجاههم الفكري إلى تحكيم العقل في أمور الدين، وبعض من الأشاعرة. ومن نماذج هذا الاتجاه فخر الدين الرازي إذ طغى المنهج العقلي على كل مؤلفات الفخر، وكان المنهج الذي ميز تفسيره الكبير.

الكتاب ونقده ونقضه 08- الإمام رحمة الله الهندي في كتابه "إظهار الحق" تناول بالتفصيل الإسناد المتعلق بالعهد القديم والعهد الجديد، وناقش نسبة كل سفر إلى من نسب إليه، وشكك في النسبة بأدلة يطمئن إليها القلب بعيداً عن العاطفة، وهو كتاب فريد في هذا الميدان. - انظر، مثلاً: إبراهيم عوض، مع الجاحظ في رسالة الرد على النصارى، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999.

وعلى الرغم من هذا التنوع في الرؤى والاتجاهات - كما رأينا سابقاً -، ظل التوجه الجدلي هو الغالب عند تناول الباحثين المعاصرين للمواقف الإسلامية من الأديان، حيث صور أحياناً أنه الموقف الإسلامي الوحيد. ولذلك ما يبرره جزئياً؛ فمن حيث الكم يحتل الجدل، أو ما يعرف بأدبيات الردود، مساحة هامة في المكتبة التراثية.

كما خصصت له العناوين البارزة في المصنفات والأبواب، مما سهل تحديده ودراسته. في حين ظلت المباحث المتعلقة بالأديان، في الاتجاهات الأخرى متداخلة في معظمها مع غيرها من الموضوعات، مما يتطلب جهداً خاصاً لفصلها، والكشف عن مضامينها. هذا بالإضافة إلى كون الاتجاه الجدلي هو الغالب اليوم على الرأي العام الإسلامي، خاصة في ظل تصاعد الشعور بالتهديد إزاء ثقافة غربية زاحفة وعولمة قاهرة.

03- إشكالات الاتجاه الجدلي في الفكر الإسلامي

إن الإشكالات التي سنذكرها إما أنها موجودة في أصل هذا الاتجاه منذ القدم، لعدم التواصل الثقافي بين علمائنا في القدم مع الثقافات الأخرى، أم أنها موجودة الآن لارتكازنا على ما قدمه أجدادنا في هذا المضمار، وكان الجغرافيا هي الجغرافيا القديمة، والمكتوب والشفهي الذي وصل إليه من سبقنا بقي على حاله. ومن أهم هذه الإشكالات نذكر:

03-01- الرجوع إلى الصيغ المنجزة

إن كتابات علماء المسلمين الأوائل - حتى نهاية القرن الرابع الهجري - كانت وليدة بيئتها وظروفها الاجتماعية والثقافية، وكانت لها إيجابياتها العديدة، لكنه من غير المقبول أن تبقى هذه الكتابات المصدر الوحيد في دراساتنا للأديان الأخرى في العصر الحاضر، فقد تطورت دراسة الأديان بصورة كبيرة في القرون الثلاثة الأخيرة، وذلك بعد تطور علم اللغات والآثار والأنثروبولوجيا، وظهور المدارس المتعددة في دراسة الأديان، فكم من الأدبيات التي لم يتطرق إليها الشهرستاني أو ابن حزم أو المسعودي، وكم من المذاهب الجديدة التي ظهرت في الأديان التي درسها علماءنا القدماء بعد أن أنجزوا كتاباتهم. ولعل الطريقة الأسهل في دراسة الأديان والمتمثلة في الرجوع إلى الصيغ المنجزة والجاهزة في مؤلفاتنا القديمة، هي الأبعد عن الموضوعية والنزاهة العلمية، فالمعرفة الإنسانية بالأديان هي معرفة تراكمية (طورية)، لم تولد كاملة، ولن تكون كذلك في يوم من الأيام.¹

03-02- العزوف عن فهم المنجزات العلمية واستيعابها عند الأمم الأخرى

لا يشك أحد في ضرورة الإقبال على فهم المنجزات العلمية واستيعابها عند الأمم الأخرى، إلا أن الكثيرين يحجمون عن تفهم أفكار تلك الأمم الدينية وخبراتها الروحية، أو الاعتراف بما تمثله من أهمية في حياتهم، وكأننا عندما

1- عامر الخاني، الموضوعية في دراسة الأديان، إسلامية المعرفة: يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الخامسة عشر، العدد 60، 2010، ص 146.

آخر وإنجازاته عند أهله فإننا سننزلق بعيداً عن ديننا وتراثنا الخاص.

فاختزال التراث الديني الإنساني بجملة من المقررات النهائية التي تسمه بالكفر والجهل، أو النقص في أحسن الأحوال، لن يرتقي بالمعرفة الإنسانية، ناهيك عن القيم الأخلاقية والإنسانية.¹

03-03- غياب نقد الذات واحتكار الحقيقة الدينية

غياب لنظرة النقدية الشاملة لمعارفنا ومسلماتنا وأفكارنا الدينية حول الآخر، وعدم التعرف على مواطن القوة فيها.²

إن أهم الأسباب التي تحول دون الوصول إلى المعرفة الصحيحة أو الحقائق الموضوعية في دراسة الأديان، تكمن بنقد الإنسان بامتلاك الحقيقة واحتكارها دون غيره من الناس.

وهذه المشكلة حاضرة في كل ثقافة أو لغة أو دين، حيث يرى أتباعها أنها الأنموذج الأكمل الذي ينبغي أن يتفوقوا على غيره.

والوقوف على فكرة محددة، ورؤية كل ما هو غيرها نقيضاً لها، إنما يعكس انحسار الفهم ومحدودية التفكير، موضوعية تقتضي نوعاً من الإقرار الضمني بإمكانية صحة ما يقوله الآخر، ومن ثم فهي تعبير عن مواصلة البحث للحقيقة وعدم تقديس الذات. ومفهوم التحيز هو في جوهره نوع من التمركز أو التمرکز حول (الذات)، الانفلاق عليها، ورؤية (الآخر) من خلالها؛ مما يعني نفي (الآخر) نفياً كاملاً خارج إطار التاريخ أو الوجود أو السعي نحو استبدال ماهيته أو هويته وإحلالها بمحتوى يتفق ومعطيات (الذات) وأهدافها.... إن مشكلة مركزية الذات تكمن في رؤية (الأنا) مركزاً ومعياراً مطلقاً للحقائق والقيم، ومن هنا يصبح الانحياز نظراً للذات هو انحياز للحقيقة، وتغدو المعرفة وجميع أدواتها وسائل لتأكيد تلك الذات وتمييزها. والنظر إلى (آخر) على أنه الأنموذج الأمثل للبطل والضلال، إنما يكرس خطأ خاطئاً من الفكر والسلوك.³

04-03- عدم استقلالية دراسة مقارنة الأديان عن علم الكلام والعقائد

دراسة الأديان تحت مظلة علم الكلام وكتب العقائد؛ وعموم هذه الكتب تعني بتأكيد عقائد محددة ونقض ما

05-03- فهم المصلحات فهماً إسلامياً

يعاتب أصحاب الأديان الأخرى على علماء المسلمين عدم فهمهم للمصلحات التي ينتقدونها، بحجة حملها على التأويل والتفسير الباطني لا الظاهري، ومن أمثلة ذلك عقيدة التثليث.

ومن ذلك أيضاً البحث عن أي تشابه بين المعتقدات المخالفة والمعتقدات السابقة لها، في محاولة لإثبات انحراف الأديان وعدم صحتها، وليس من باب تعميق الدراسة.

المراجع السابق، ص 150.

المراجع السابق، ص 146.

المراجع السابق، ص 147.

ومن ذلك أيضا البحث في متشابهات النصوص عند الآخر، وحملها على أسوأ معانيها، وعدم تأويلها، في حين تُؤوّل ما تشابه من نصوصنا، ولا نقبل أن يفهمها غيرنا على ظاهرها "ازدواجية المعايير".
وفي السياق نفسه تأتي مشكلة عدم التمييز بين أقوال الفرق الشاذة وقول جمهور أتباع ذلك الدين.
وفي هذا السياق تأتي ظاهرة الانتقائية في المعلومات والتعميم في الأحكام، مثل تعميم الضعيف والبلد من أقوال بعض الفرق المنتسبة لهذا الدين أو ذاك على كافة أتباع الدين.

03-06- إعطاء الأولوية للنقد، مع إهمال بناء التصورات العلمية الموضوعية عن الأديان

إعطاء الأولوية للنقد، مع إهمال بناء التصورات العلمية الموضوعية عن الأديان، على الرغم من أن الحكم على الشيء فرع من تصوره. ومن ذلك إصدار الأحكام النهائية بحق الأديان الأخرى دون الإحاطة بما يقوله علماء تلك الأديان، مثل عدم الرجوع إلى آراء العلماء اليهود (أمثال موسى بن ميمون)؛ للتعرف على رأيهم في النصوص الموجهة للتشبيه، من قبيل أن الله "استراح يوم السبت"، أو المنافية للعلم أو الحقائق التاريخية.

03-07- عدم امتلاك المؤهلات العلمية لنقد التصورات الدينية الأخرى

عدم امتلاك المؤهلات العلمية لنقد التصورات الدينية الأخرى، لا سيما وأن المفترض بالنقد أن يملك من المعرفة أكثر من المتبعين المجتهدين لمذهب أو دين ما، ناهيك عن يقلد، وفي هذا المعنى يقول حجة الإسلام الغزالي التي تروى "لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم، ثم يزداد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من حقائق وأخبار فساد حقاً".

ومن غياب المؤهلات العلمية عدم معرفة اللغات الأصلية لتلك الأديان، كما هو الحال مع اللغة العبرية والآرامية، واليونانية القديمة في دراستنا لليهودية والمسيحية، وما يترتب على ذلك من آراء تتناقض والمعرفة العلمية مع عدم الرجوع إلى المصادر الأساسية المعتمدة عند أتباع تلك الأديان، والاقتصار على دراستها من خلال المصادر التي يؤمن بها الباحث، أو ترجمات، أو كتابات ثانوية عن تلك الأديان.¹

هذه بعض الإشكالات النفسية والمعرفية، ويمكن ملاحظة بعض الإشكالات الأخرى حتى على مستوى اللغة الدينية عند عامة المسلمين، وكيف تؤثر عليهم في نظرتهم للديانات الأخرى، وهذا نتيجة الأثر الاجتماعي والسياسي للاتجاه الجدلي.

وعلى ضوء هذه الإشكالات نقترح بعض الحلول، لتكون أساسا مستقبلياً لإعادة صياغة دراسة وتحرير الأديان، وتربية النشء على ثقافة الاعتزاز بدينه والتحاور مع الآخر والتعايش معه.

¹ - عامر الحافي، الموضوعية في دراسة الأديان، مرجع سابق، ص 156.

04- اقتراحات الصياغة الجديدة

1. التكاملية المعرفية: ضرورة السعي نحو بناء معرفة تستوعب الأديان الحضارية والفكرية والثقافية المرتبطة بالأديان، حتى تكون الدراسات الدينية أقرب إلى الموضوعية. ويضاف إلى ذلك ضرورة الاستفادة الواعية من التجارب البحثية المقابلة، وما يصلح من مناهج العلوم الإنسانية. ومن جوانب التأمل ضرورة التعرف على التراث الديني الإنساني، ومعرفة أطواره ومراحله، وأثر الظروف التاريخية في تلك الأطوار، واستخلاص الأسس والقواعد العامة للفكر الديني، وتفسير نشأته ودوره في حياة الفرد والمجتمع.

2. النظرة النقدية الشاملة لمعارفنا ومسلّماتنا وأفكارنا الدينية حول الآخر، والتعرف على مواطن الضعف والقوة فيها، ومن ذلك ضرورة إعادة النظر في تصنيف الأديان على ضوء المعارف الجديدة حول تلك الأديان، وعدم إقتصار على التصنيفات القديمة للعلماء السابقين.

3. ضرورة التعامل مع الأفكار الدينية بوصفها معرفة إنسانية معللة، قابلة للفهم، ومتأثرة بالظروف الإنسانية.

4. تجاوز اختلاف المصطلحات والألفاظ إلى الحقائق والمفاهيم الجوهرية التي تكمن وراءها، وعدم الوقوف عند الظاهر والطقوس، وجعلها منطلقاً وأ نموذجاً معيارياً للحكم على الأديان الأخرى، دون معرفة المضامين الروحية والإنسانية التي ترمز إليها تلك الأشكال والمظاهر.

05. المعرفة المباشرة لدارس الأديان بموضوع دراسته، وعدم الاقتصار على الكتابات والنصوص للتعرف على تجارب والخبرات الإنسانية التي يعيشها أتباع هذا الدين.¹

06. معرفة اللغات الأصلية لتلك الأديان، كما هو الحال مع اللغة العبرية، والآرامية، واليونانية القديمة في الحال مع دراسة لليهودية والمسيحية.

07. الرجوع إلى المصادر الأساسية المعتمدة عند أتباع تلك الأديان.

08. ينبغي لدارس الأديان أن يدرس الأفكار والمعتقدات الدينية؛ لمعرفة حقائقها وأصولها ومعانيها وأثرها في حياة الناس، لا أن تكون غايته القصوى هي إثبات كذب الأفكار والمعتقدات المخالفة. فإثبات كذبها لا يزيد الباحث معرفة، وإنما يزيد غروراً فيما أوتيته من المعرفة، أو ربما فيما ولد عليه وتلقنه منها. خلافاً للباحث المنصف في الأفكار والمعتقدات الدينية، الذي غايته المعرفة وليس شيئاً آخر، وهو بذلك يحظى بمعرفة جديدة وآفاق أوسع، تزيد علماً وتواضعاً، وتخفف سعيه ووعبه.²

09. عدم حصر دراسة الأديان وتدريسها على الجامعات الإسلامية، واستخدام كل المناهج العلمية كالمنهج التاريخي والنقلي والعقلي، وهي وسائل لا مفر منها من أجل دراسة الديانات، ولعل ما يقوم به ماستر الدراسات السامية ومقارنة الأديان بالمغرب، خير نموذج في دراسة هذا العلم، وذلك راجع إلى نية من الأساتذة المتخصصين في هذا العلم والملمين بلغة وثقافة الآخر، وباللغة العبرية التي تعتبر أساسية في فهم الكتاب المقدس الأمر الذي يغيب في

¹ - المرجع السابق، ص 146.

² - غابر الخالي، الموضوعية في دراسة الأديان، مرجع سابق، ص 160.

كثير من الجامعات الإسلامية.

10. إعادة النظر في الحقائق التي خلص إليها علماءنا المسلمون في ضوء هذه التطورات الكبيرة؛ مما يؤكد أن دراسة الآخر وتراثه الديني ليست مسألة مثالية أو محصورة بما خلص إليه أجدادنا "الرؤية العقيدية المطلقة" بقدر ما هي عملية تنقيب واجتهاد ومراجعة، تتعامل مع مكتشفات وتأويلات جديدة لنصوص دينية قديمة "مخطوطات البحر الميت على سبيل المثال" وتأويلات وتفسيرات جديدة للنصوص وللمعتقدات، وهذا ما يمكننا من استيعاب "معضلة الحقيقة، ومعضلة الذات والآخر".¹

05- صياغة منهج مقارنة الأديان:

على الرغم من الاختلاف حول صياغة منهج مقارنة الأديان، يسع الجميع، تبقى أصعب خطوة في دراسة الأديان هي اختيار المنهج الذي يدرس به الباحث الدين، بحيث يحافظ على قيمه وقيم المخالف، ويلتزم الموضوعية. ولعل أهم صيغة في ذلك هي التي تكون من خلال وجهتي نظر الكاتب والمعتقدات المدروسة معاً، عبر أطر معرفية وقيمية مشتركة، وهو أمر -على الرغم من المتاعب المحفوفة به- غير مستحيل. ويبدو هذا لاحتمال هو ما دعا إليه الفاروقي في كتابه "أخلاق المسيحية".

وفيه يرى الفاروقي ضرورة أن يتحرك دارس الظاهرة الدينية بصورة عقلية ونفسية حرة من قيود قيمه الدينية وثقافته إلى قيم الدين والثقافة قيد الدرس، وذلك عن طريق وضع قيمه الدينية وثقافته بين قوسين حتى لا تشوش عليه فهمه، ولا تتدخل في إملاء أي تحكيمات تمنعه من فهم الظاهرة الدينية قيد الدرس، وبهذه الكيفية يُتاح له الفرصة أن يعيش مع الظاهرة الدينية قيد الدرس مدة يستمع إليها وهي تخاطبه، وبالتالي يُتاح له فهمها كما يفهمها صاحب تلك الظاهرة. من بعد هذه الرحلة المتأنية ينتقل إلى مستوى آخر للحكم على فهمه لتلك الظاهرة وفق قواعد كلية إنسانية للفهم تخضع لها الظاهرة الدينية. وبهذه الحركة الثلاثية: بداية بالدين، والثقافة التي تنتمي إليها، ثم الظاهرة الدينية المفارقة لدينه وثقافته، نهاية بمستوى القيم الإنسانية الكلية الحاكمة والضابطة لمعايير الفهم، يستطيع المرء الوصول إلى فهم وتقويم موضوعي لتلك الظاهرة ويكون الحكم عليها؛ إما بالصحة أو الخطأ الذي يلزم إعادة تأهيلها حتى نستقيم مع نظام الفهم والحكم الموضوعي.

وهذا المنهج مثلما هو صالح لدراسة الدين والثقافة المفارقة، فهو كذلك يصلح لدراسة الدين والثقافة التي تنتمي إليها الدارس، فبالكيفية ذاتها التي تخضع لها تلك الثقافات والديانات المفارقة، يخضع لها دين الدارس وثقافته، بالكيفية نفسها من الحرّة والحيدة، فما ظهر منها أنه بحاجة إلى إعادة التأهيل لأنه لا يتسق مع مبادئ الفهم الكلية قضي فيه بذلك، ويثبت معالم إعادة فهمه؛ لأن دراسة الأديان الأخرى الغرض الأسمى منها -عند الفاروقي- هو

¹ - عامر عدنان الحاي، قراءة في كتاب نقد الأديان عند ابن حزم الأندلسي، إسلامية المعرفة، يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة السادسة عشر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد 61، 2010، ص 143.

الوصول إلى الحق والوقوف معه، ومعاله هي معالم الكلمة السواء، يجتمع عليها الكل بسبب أنها أصل التدين، وما
ليانات المتعددة في العالم إلا مظاهر لذلك الأصل الجامع، افترق الناس عنها بسبب التحريف التاريخي والتدليس
والبس في الفهم.¹

والوصول إلى الحق والوقوف معه، وجمع الإنسانية على كلمة سواء يكون بالاتجاه الوصفي في حين وبالاتجاه
المبدئي في حين آخر، مع تقبل ما جاء به كلاهما من حق بالحكمة والموعظة الحسنة، والحكمة تقتضي الموضوعية
والموعظة الحسنة تقتضي عدم التعالي على المخالف.

وبذلك نطمح نحن وغيرنا من باحثين إلى مشروع يهدف إلى صياغة نظرة إسلامية جديدة للأديان، وهو جزء
من مشروع أكبر هو التجديد الكلي للفكر الديني الإسلامي.

ويتطلب هذا المشروع بدوره الانطلاق من معرفة تاريخية عميقة ومنفتحة على اللغات والثقافات والتعايش مع
آخر، واعتماد منهج نقدي متوازن، يرى الإيجابيات ولا يهمل السلبيات، يتفهم الآخر ويتعاطف معه.
وهو ما نادى به عدنان المقراني وندعو إليه مجدداً، لأنه يتطلب مخابر بحث، ومجموعات تقوم أولاً بالدراسة
المسحية ثم التصنيف ثم الانتقاء.

01- عبد الرزاق عبد الله حاش، علم مقارنة الأديان بين سؤالي المفهوم والموضوعية: دراسة تحليلية مقارنة، إسلامية المعرفة، يصدرها المعهد العالمي
للشكر الإسلامي، السنة السابعة عشر، العدد 67، ص 90.

المراجع:

- 01- إبراهيم تركي، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، الإسكندرية: دار الوفاء، الطبعة الأولى، 2002.
- 02- إبراهيم عوض، مع الجاحظ في رسالة الرد على النصاري، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2009.
- 03- محمد الكحلاني، الحقيقة الدينية من منظور الفلسفة الصوفية - الحلاج وابن عربي، بيروت: دار الطليعة، 2005.
- 04- محمد محمد حسنين، مناهج المجادلين المسلمين في نقد النصرانية، قطر: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد الخامس.
- 05- عامر الحافي، قراءة في كتاب نقد الأديان عند ابن حزم الأندلسي، إسلامية المعرفة، يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة السادسة عشر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد 61، 2010.
- 06- عامر الحافي، الموضوعية في دراسة الأديان، إسلامية المعرفة: يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الخامسة عشر، العدد 60، 2010.
- 07- عبد الرزاق عبد الله حاش، علم مقارنة الأديان بين سؤالي المفهوم والموضوعية: دراسة تحليلية مقارنة إسلامية المعرفة، يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة السابعة عشر، العدد 67.
- 08- عدنان المقراني، نقد الأديان عند ابن حزم، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1429هـ، 2008.